المجتمع التطواني ما بين التنوع الإثني والثقافي: دراسة في ظاهرة المواسم الشعبية

The Tetouanese community between ethnic and cultural diversity: a study of the phenomenon of popular seasons

د. أكدي حسن: أستاذ باحث في التاريخ الاجتماعي، حاصل على دكتوراه في التاريخ المعاصر من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس–سايس، المغرب.

د. أشبون نور الدين: باحث في التراث الجغرافيا الثقافية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، المغرب.

Dr. Hassan Akdi: Researcher in social history, PHD in Contemporary history, Faculty of Arts and Humanities Sais- Fez Morocco.

Email: hassan.akdi17@gmail.com

Dr. Noureddine Achboun: Researcher in cultural geography, Faculty of Letters and Human Sciences, Tetuan, Morocco.

Email: noureddineachboun@gmail.com

DOI: https://doi.org/10.56989/benkj.v3i5.293

الملخص:

يثير مقالنا هذا جانبا أساسيا في دراسة المجتمع التطواني، وهو ذاك التنوع والتعدد الإثني والثقافي الذي أسهمت في تشكيله عدة أصول، أندلسية، يهودية، أمازيغية، زنجية...، تمظهرت على مر التاريخ في تقاليده، عمرانه، احتفالاته، لهجاته، طعامه، لباسه، وغير ذلك. وعلى هذا الأساس نحاول إبراز هذا التنوع وقيمته الثقافية والتاريخية في وقتنا الراهن من خلال التركيز على استعراض تلك المواسم الشعبية التي سادت وتشكلت بإسهام مختلف الشرائح الاجتماعية، مع التأكيد على بعدها التراثي كمقوم في إغناء الطابع المتوسطي للمجتمع ومدى أهميتها كذلك في تنشيط القطاعات التنموية. وبالفعل بحثنا في المصادر التاريخية، والنزول للميدان للتقصي حول عناصره أثبت أن تنوع وغنى هذا الإرث هو ثروة حضارية تتمظهر في جوانب عدة سواء المادية أو اللامادية، وهي نتاج إسهامات تراكمية لمختلف الأجناس والفئات الاجتماعية التطوانية. ومن جهة أخرى، نأمل عبر محاور مقالنا هذا إثارة اهتمام الباحثين الأكاديميين في تناول قضايا التراث التاريخي لحاضرة تطوان، نظرا لأهميته في ترسيخ الذاكرة التاريخية للمجتمع، مع ضرورة استثماره في الميادين التنموية.

الكلمات المفتاحية: الإثنيات، التراث الثقافي، المواسم الشعبية، تطوان المتوسطية، التعدد الثقافي اللامادي.

Abstract:

Our article highlights a fundamental aspect in the study of Tangier's society, which is its diversity and ethnic and cultural multiplicity that has been shaped by several origins: Andalusian, Jewish, Amazigh, and sub-Saharan African. These origins have been manifested throughout history in their traditions, architecture, celebrations, dialects, cuisine, clothing, and more. Based on this, we will attempt to highlight this diversity and its cultural and historical value in our present time by focusing on showcasing those popular seasons that prevailed and were formed with the contribution of different social strata, while emphasizing their heritage dimension as a component in enriching the Mediterranean character of the society, and also their importance in stimulating developmental sectors. We have already searched historical sources and conducted field research to investigate its elements, which has proven that the diversity and richness of this heritage is a cultural

wealth manifested in various tangible and intangible aspects. It is the result of cumulative contributions from various social classes and groups in Tetouan. On the other hand, through the themes of this article, we hope to draw the attention of academic researchers to the issues related to the historical heritage of Tetouan. This is important for the preservation of the historical memory of the community and its development in various fields.

Keywords: ethnicities, cultural heritage, popular seasons, Tangier's Mediterranean character, non-material cultural diversity.

المقدمة:

إن المتفحص للإرث الشفهي، ومتون المصادر التاريخية المحلية يتأكد من مدى الغنى الثقافي والتنوع المميز لأصول المجتمع التطواني، هذا التنوع الإثني كان وعلى مر حقب تاريخ المدينة أحد أبرز مظاهر التجانس والانصهار الحضاري الذي ميز شعوب المنطقة المتوسطية رغم ثقل الأزمات والتحديات التي كانت تطرأ.

ومن جهة ثانية، يتضح لنا أن الألوان والأشكال الثقافية المادية واللامادية التي تطبع هوية المجتمع التطواني تظل نتاج ذهنيات ومفاهيم وتصورات تلك الإثنيات التي تكونه. فالمتمعن في عدة آثار وعادات، وتقاليد، وطقوس احتفالية يجد فيها حضور مساهمات ذوات أمازيغية، عربية، افريقية، يهودية...، تتقاطع في رمزيتها ودلالتها الاجتماعية وغاياتها العقدية أو التعبدية، لكن لا تخرج عن حدود القيم الإنسانية والدينية للإنسان التطواني، والتي آمن بها ومارسها لتحقيق ربما التزكية الروحية، أو لتعظيم أيام ارتبطت بأحداث كانت لها قدسية. والمواسم الشعبية التي لازالت تمارس ليومنا هذا إحدى تلك الموروثات التي تبين بجلاء نوعية الذهنيات والسلوكيات الجمعية للمجتمع التطواني الذي حرص على تمتين الصلة بجذوره وروافده الثقافية، وهو تعبير وجودي عن أصالة الثقافة التطوانية المؤمنة بالتعدد الهوياتي وتجذرها في وعيٍ مختلف فئاته وقواه الاجتماعية.

إشكالية الدراسة:

تتمحور إشكالية الدراسة حول ذاك التنوع البشري والثقافي اللامادي الذي ميز مجتمع تطوان، تمظهر في عدة سلوكات وطقوس، وتقاليد احتفالية، ترسخت في الوعي الجمعي للساكنة لحدود الساعة. ولهذا تتبادر لأذهاننا تساؤلات مركزية أهمها:

- ماهي تلك الإثنيات التي شكلت تاريخ وثقافة وساكنة الحاضرة التطوانية؟
- أين يبرز التنوع الثقافي اللامادي من خلال المواسم الاحتفالية الشعبية بالمجتمع التطواني؟
- هل لهذه المواسم أهمية في المشاريع التنموية لتطوان كفضاء متوسطي؟

منهج الدراسة:

يرتكز التحليل لإشكالية بحثنا على المنهج التاريخي الذي يستند في تأويله على المادة التاريخية التي توفرها المتون، والمتعلقة أساسا بالجوانب الاجتماعية والثقافية والتراثية للمدينة، لذلك وتحقيقا للأهداف التي تقدمت وظفنا مقاربتين: الأولى تاريخية تحاول التأسيس للخريطة الإثنية للساكنة التطوانية التي أسهمت بتفاعلاتها في إنتاج نموذجها الثقافي المتميز بتنوع الروافد، والثانية سوسيوثقافية تركز على أهمية الموروث في تحقيق التعددية الثقافية بتطوان، ودوره من خلال تحليل ظاهرة المواسم الشعبية في تجذير الهوية المتوسطية للمجتمع التطواني.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف، منها:

- إبراز التنوع الإثني للمجتمع التطواني كأساس للتعدد الثقافي المميز للمدينة.
- الوقوف على أن تمظهرات الطقوس والاحتفالات بالمواسم الشعبية التي تميز مجتمع تطوان، هو إرث لامادي له أهميته الاقتصادية والاجتماعية في وقتنا الراهن، ويحتاج للتثمين لحفظ الذاكرة والهوية المتوسطية للمدينة.

أهمية الدراسة:

نظرا لما يعرفه المجتمع الإنساني من تحديات راهنة، يظل البحث العلمي حول التراث الثقافي المادي واللامادي لمجتمع تطوان أولوية في أبحاث الجغرافية الثقافية، والتاريخ الاجتماعي، وذلك بغية فهم بنيات وذهنية المجتمع ومدى درجة حضور التنوع العرقي والحضاري الذي شكل ذاكرته التاريخية في أبعاد مختلفة.

المبحث الأول: المجتمع التطواني: غنى وتنوع إثني

1) إثنيات أصلية

أ. العنصر الجبلي

الحديث عن أصل سكان جبالة فيه اختلاف كبير تبرزه عدة تعاريف[1]، بل حتى المنطقة التي استوطنوها والتي تنعت بجبالة فيها اختلاف على مستوى اللفظ ودلالته وحدوده الجغرافية[1]. ومهما

[1] - هناك من يرى بأن جبالة تجمع سكاني للشمال الغربي المغربي، كان تعريبهم بفعل تأثير مراكز دينية منها: وزان وشفشاون وقربهم من بلاد الأندلس؛ ووآخر يعتبر أن سكان جبالة غماريون مصامدة وعرب، وغمارة هم مصامدة الشمال، ومن أشهر شعوب البربر وقبائلهم، وتزعم العامة أنهم عرب غمروا في الجبال فسموا بغمارة؛ أما أحد الأجانب فيعتبرهم من أصل بربري، وبالضبط من المجموعة المصمودية التي دخلت في الإسلام مبكراً.

اختلفت التفسيرات بخصوص ذلك فإن تطوان شكلت إحدى المدن الشمالية التي استوطن فيها الجبلي عبر حقب تاريخيه متوالية قدموا بالخصوص من القبائل المجاورة لأسباب متعددة، فمثلا خلال القرن التاسع عشر نجد منها ما يعود إلى أسباب اقتصادية، ذلك أن تطوان شكلت مركزا مهما للمبادلات البرية والبحرية حيث كانت عمليات البيع والشراء تتم ما بينها وبين الجبليين. فكان هؤلاء يأتون بمواد خام كجلود الماعز، وبذرة الكتان، والزيتون وزيت الزيتون، مقابل الحصول على أثواب، ومواد غذائية، كالسكر والشاي والشمع، والمكاحل وغير ذلك. ومنها ما يعود إلى أسباب اجتماعية، فحين كانت تقسو الطبيعة كسيادة الجفاف، وانتشار الجراد وغير ذلك كان الفلاح الجبلي ينزح نحو المدينة تاركا قريته وأملاكه ليستقر بها، محاولا البحث عن ملجأ يقيه البؤس، وهو ما أسهم في تقوية الروابط البشرية بين المجالين وتأكيد فعالية العنصر البشري في المجال التطواني وحركيته. وإذا كانت العناصر البشرية الأندلسية امتازت عن غيرها بالتفنن وحسن التأنق في الحياة والريادة في عالم السياسية، فإن الجبليين تمكنوا من حمل المشعل في عدة مجالات داخل المدينة حيث ساهموا في تزويد المدينة بشكل خاص بأطر ذات دراية بالعلوم الشرعية، فتعاطت لمهن كالعدالة والإفتاء، بل مارست التدريس بالمساجد وتولوا منصب القضاء[2]. ونذكر منهم على سبيل المثال لا للحصر أفراد عائلة ابن قريش (الحزمرية) الذين احتكروا مناصب القضاء والإفتاء والإمامة طيلة عدة عقود[3]. هذا فضلا عما قامت به هاته العوائل من أدوار طلائعية في التفاعل مع الأحداث السياسية والاجتماعية، وكذا التضامن الذي ميز مواقفها وسلوكها خصوصا في اللحظات الحرجة من تاريخ المدينة، وفي الفترات التاريخية اللاحقة (منذ مطلع القرن العشرين) سيصبح أهم مكون بشري واجتماعي بتطوان.

للتعمق أنظر التحليل الذي أورده الشايخي، أحمد (2004)، بلاد اجبالة تحت الحماية الإسبانية من 1912 إلى 1956. الرباط: جامعة محمد الخامس؛ أطروحة دكتوراه في التاريخ غير منشورة؛ الكتاني سيدي محمد (2004)، المقدس في المجتمع الجبلي (1894–1912). الرباط: جامعة محمد الخامس، أطروحة دكتوراه في التاريخ غير منشورة، صص 13– 115. ثم يرجع للدراسة الحديثة التي قام بها، البكوري، معاذ (2018)، قبائل غمارة من مواجهة الضغوط الاستعمارية إلى فرض الحماية الإسبانية، 1859–1956، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ط1، المغرب: طبع *Negoce Com*.

[1]–الفكيكي، حسن (بدون تاريخ نشر) جبالة تاريخ ومجال، ندوة لأعمال مجموعة متعددة الاختصاصات للبحث حول جبالة، جبالة مجال وممارسات، منشورات جامعة ابن طفيل بالقنيطرة، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ص7– 13. وكذا البكوري، مرجع سابق، ص30–34.

[2] – السعود، عبد العزيز (2009): معطيات ديمغرافية واثنية عن تطوان في القرنيين 18–19م، ندوة: المجتمع التطواني والتطور العمراني والمعماري، من القرن 16إلى القرن 20م، ط1، تطوان، مطبعة الخليج العربي، ص34 – 36.

[3] – السعود، عبد العزيز (2007)، تطوان في القرن الثامن عشر، السلطة، المجتمع، والدين. منشورات جمعية تطاون أسمير، ط1، تطوان: مطبعة الخليج العربي. ص219.

ب. العنصر الريفي

إذا كنا نتحدث هنا عن الأصول الأمازيغية[1]، باعتبارها إحدى الروافد الأساسية في بناء التشكيلة الحضرية لمجتمع تطوان فإننا نقصد بالذات تلك الأصول التي ذكرها الرهوني في الجزء الثالث من موسوعته عمدة الراوين، والتي نعتها بالريفية، ذلك أن تناول العائلات الأمازيغية هي قضية شاسعة وشائكة وتخضع لعدة تأويلات سواء من لدن الأجانب أم من لدن المغاربة. ومن هذا المنطلق نتساءل: كيف أصبح العنصر الريفي جزءا أصيلا ضمن البنية المجتمعية لمدينة تطوان ؟

إذا كانت منطقة الريف قد عرفت جذبا للسكان من مختلف القبائل، فإنها كانت منطقة طرد أيضا سواء إلى المناطق الداخلية أم إلى المناطق الخارجية، وهنا تبرز عدة عوامل متباينة شكلت أرضية للهجرة نحو تطوان منها:

عوامل اجتماعية: بسبب القلاقل التي شهدتها خلال القرن التاسع عشر سواء داخليا أم خارجيا. فداخليا مثلا، تمثلت في بعض الصراعات الدموية على صعيد البنية القبلية نظرا لانعدام الحضور القوي للسلطة المركزية، مما أدى إلى تنافر بين الفرق المتناحرة، وبالتالي هجرة بعض أفراد الفرق المنهزمة، علاوة للجرائم التي كانت ترتكب خلال الفترة المذكورة فلم يكن المجرمون قادرين على أداء الدية، وبالتالي كانوا معرضين للنفي من القبيلة.

ومنها عوامل سياسية: حيث يمكن تمييز نوعين من الهجرة في هذا الصدد:

هجرة من أجل المصلحة العامة: وقد ابتدأت مند العهد الوطاسي، عندما طالب مورسكيو غرناطة النازلين بقرب تطوان من السلطان محمد الشيخ الوطاسي إقطاعهم موضعا لبناء منازلهم وحماية أنفسهم من غارات القبائل المجاورة، فقبل السلطان طلبهم، فعين لهم مدينة تطوان المغربية موضعا لسكانهم. وبمجرد استقرار الريفيين بتطوان توالت هجرات فردية وأخرى جماعية من قبائل الريف الأوسط إلى هذه المدينة، وبذلك تكونت حومة خاصة بالريفيين في الشمال الشرقي من المدينة.

ثم هناك هجرة اضطرارية: وفي هذا الصدد نستحضر مثالا تاريخيا لما وقع لقبيلة بقيوة أواخر القرن التاسع عشر بسبب ما قامت به من قرصنة في شاطئها ضد السفن الأوربية، فأرسل

[1] – العلوي، التقي (2019): أصول المغاربة. مراجعة وإخراج، علال كركوك، وحفيظة الهاني، الرباط: مطبعة المعارف؛ مقال: الفهري، عبد الحميد (1992): البربر من خلال المؤلفات العربية إلى حد ابن خلدون، مجلة الكراسات التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، بتونس، ع 159 – 160 ص91–122.

السلطان مولاي عبد العزيز حملة تأديبية أسهمت في تهجير العديد من أفرادها نحو أقاليم مختلفة[1].

ولتحقيق الاندماج ومسايرة مجرى الحياة بالمدينة استطاع الريفيون الانخراط في عدة أعمال وأسسوا تجارة خاصة بهم، بل منهم من وصل لمناصب مهمة مثل أفروخ الذي عمل وكيلا للمغاربة بمصر، وكان قنصلا بجبل طارق، وأبعير وأبارودي،[2] والقائد علي بن عبد الله الحمامي الذي حكم إقليم الشمال، والباشا أحمد بن علي الحمامي الذي عهد إليه والده في حياته عمالة تطوان وطنجة[3]، كما اشتغل عدد منهم بالحرف، إذ أن أغلب الدرازين كانوا ريفيين[4]. وهكذا شكلت الفئة الريفية لبنة أخرى انضافت إلى اللوحة الفسيفسائية للمجتمع التطواني، وذلك بما أحدثته من تأثيرات في شتى المجالات حتى المرتبطة بالطابع القيادي المخزني.

2) إثنيات وافدة

1. العنصر الأندلسي والمورسكي

أمام تساقط المدن الأندلسية في أيدي المسيحيين، بدأ هؤلاء بطرد المسلمين وإعادة توطين مناطقهم بغيرهم من العناصر الأخرى، ثم كان سقوط آخر معاقل الوجود الإسلامي بشبه الجزيرة الإيبرية سنة 1492م، واستيلاء فرناند وإيزبيلا على مقاليد حكمها، لينطلق مسلسل الإضطهاد ضد الفئتين المسلمة واليهودية مثلته محاكم التفتيش، مع نهج أسلوب الطرد والتهجير القسري[5] ضدهم، ليتوجهوا مرغمين إلى البلاد الإسلامية خاصة المغرب، حيث أقاموا أحياء خاصة بهم، وشيدوا مدننا أصيلة بسواعدهم منها مدينة تطاون، ولا تزال سلالتهم بها تقيم حتى اليوم[6]. وينتمي هؤلاء إلى بلنسية ومنطقة الأندلس وقشتالة، وغرناطة، ومرسية وبعض العناصر من الأراجون وكطالونيا[7].

---

[1]– الطيبي، عبد الرحمان (1993)، المجتمع بمنطقة الريف قبل الحماية، ج1، الرباط: جامعة محمد الخامس، أطروحة دكتوراه غير منشور، ص146 –149.

[2] – السعود، عبد العزيز: دور تطوان في المبادلات الخارجية، ضمن ندوة: تطوان خلال القرن الثامن عشر 1727–1822(1993 اكتوبر). تطوان: مطبعة الهداية، ص45.

[3] – السعود، عبد العزيز، مرجع سابق، ص86.

[4] – السعود، عبد العزيز (1996)، تطوان خلال القرن التاسع عشر، مساهمة في دراسة المجتمع المغربي. منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان: مطبعة الحداد يوسف إخوان، ش. م. م، ص24.

[5] – صدر قرار النفي النهائي لجميع مسلمي الأندلس صباح 22 شتنبر سنة 1609م فكان له وقع الصاعقة على الجميع، ليضاعف معاناتهم وظلت السفن الإسبانية تلقي بهم على الشواطئ المغاربية، حتى 1616 م، أورده، قدور، عبد المجيد(2003): الهجرة الأندلسية إلى المغرب الإسلامي ونتائجها الاجتماعية والحضارية، الجزائر كنموذج، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة، الجزائر، ع 20، ص172.

[6] – محمد جمال الدين، عبد الله (1978): المورسكيون أو المدجنون آخر المسلمين في الأندلس، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، مصر، ع8، ص32.

[7] – رزوق، محمد (1996): ملاحظات حول الوجود المورسكي بالمغرب، مجلة كلية الآداب بوجدة، ع 6، ص145.

وقدّر عددهم سنة 1613 بمدينة تطوان بحوالي 10 ألف مورسكي، وبصفة عامة فإن المصادر الإسبانية تقدر عددهم بالمغرب بحوالي 40 ألف شخص، بينما قدرتهم المصادر المورسكية بحوالي 60 ألف شخص مورسكي[1]. وقد استقبل المغاربة الأندلسيين المهجرون بالقبول والترحاب في بعض المراحل، كما واجهوهم بالرفض والصراع والحرب في مراحل أخرى[2].

والاصطدام مع الأهالي المغاربة يعود لعدة اعتبارات منها اختلاف المجتمع الأندلسي الحضري عن المجتمع القبلي المغربي، بل برز هذا الاختلاف في البنية الاجتماعية وفي الشرائح الاجتماعية والأنشطة الاقتصادية. كما تجسد هذا الصراع أيضا اقتصاديا نظرا لمضايقة الأندلسيين للمغاربة في مصالحهم الحيوية[3]. والجدير بالذكر أن الظروف المحلية التي كانت تعيشها المنطقة أحيانا أثرت على هؤلاء الوافدين، وكانت تجعلهم يتحملون عواقب هذه الوضعية التي وجدوا أنفسهم قد أقحموا فيها من غير رضاهم. وهنا تذكر شهادة تاريخية عن هذا الواقع تقول: « لقد جند منهم مولاي زيدان الآلاف من الجنود لغرض الحرب التي كانت دائرة بينه وبين مولاي الشيخ. وبعدما هزمه هذا الأخير وجد المورسكيين أنفسهم مضطرين إلى الفرار عبر الجبال حاملين أمتعتهم القليلة على ظهورهم ويجرون نساءهم وأطفالهم وهم يلعنون المغرب وملوكه، وبأصوات عالية أمام الملأ يمزجون أسفهم وثناءهم على اسم المسيح»[4]. والوجود الأندلسي في مدينة تطوان عميق إلى درجة أنه شكل ومازال عنصرا لا يتجزأ من النسيج الثقافي والاجتماعي للمجال التطواني، إذ أضحى مجتمع المدينة يتمتع بكل أنماط السلوك الراقي المتحضر، بعدما كانت تطبعه سلوكيات البداوة، حيث عرفت الحاضرة من خلالهم أرقى مظاهر التنظيم وفن التعامل والإبداع في مجال السكن والملبس والمشرب وغيره، وشمل تأثيرهم في مجالات الحرف، والمعمار والتجارة وكيفية مواجهة الأخطار عبر تطوير المدينة عسكريا إلخ.

ويمكن القول إن هذا العنصر البشري ساهم في توجيه تطور المدن المغربية في حياتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية[5].

[1] – المرجع السابق، ص145.

[2] – بن عبود، محمد (2009): التأثير الأندلسي في الثقافة المغربية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، ع 15، ص110.

[3] – المرجع السابق، ص110.

[4] – بوزنيب، الحسين (1998): صعوبة اندماج الموريسكين في المجتمع المغربي، مجلة الأكاديمية، ع15، ص113.

[5] – بن عبود، مرجع سابق، ص115.

2. العنصر اليهودي[1]

حظيت الطائفة اليهودية المغربية دون ريب بدراسات وكتابات عدة سواء تعلق الأمر بحياتهم الاجتماعية أم الاقتصادية وغيرها، وهذا ما يجعلنا نطرح بعض التساؤلات: ماذا نعرف عن يهود المغرب؟ وإلى أي حد استطاع الدارسون الكشف عن الواقع اليهودي المغربي؟[2] وما مدى مصداقية الأبحاث التي أنجزت عنهم؟ وكيف يمكننا التأكد من ذلك؟

في هذا الإطار يؤكد أحد المختصين حسبما خلص إليه في سياق اشتغاله على يهود المدينة أنه رغم تعدد الدراسات المقدمة عن تاريخ يهود المغرب، فإننا نجدها حافظت على نسق واحد، ودافعت عن أطروحات موحدة، إلى درجة أن الواقف عليها يخالها أعمالا مكررة[3]، إذ أن الدارس لتلك الأدبيات المرتبطة بمسألة يهود المغرب يجده أن تاريخ اليهود هو تاريخ نكبات وملاحقات، ويحمل آهات وشكاوى أقلها حدة ما سجله حاييم الزعفراني في كتابه «ألف سنة من حياة اليهود في المغرب»[4].

والمعروف أن يهود المغرب عاشوا تحت عقد أهل الذمة، كما دخل بعضهم في الإسلام بعد الفتح العربي لشمال إفريقيا، وبعد تغلب المسيحيين على الأندلس هاجروا مع المسلمين إلى شمال إفريقيا، وقد قدّر عددهم آنذاك ب 150 ألف نسمة، تركز أغلبهم في كبريات المدن المغربية كفاس ومكناس وطنجة وتطوان وغيرها. وعاشوا آمنين على أنفسهم وأموالهم ممارسين لشعائرهم الدينية[5].

وفي بداية القرن التاسع عشر، كان اليهود يمثلون 7% من سكان المغرب، وقدّر عددهم في أواخر هذا القرن خمس أو تسع ملايين نسمة، واحتكروا التجارة نظرا لمعرفتهم باللغات، وارتباطهم بيهود أوربا. وقد حفظ لهم سلاطين الدولة العلوية حقوقهم، إذ صدر أمر سلطاني للمولى سليمان

---

[1] – الحديث عن مهمَّشي هذا المكون، يظل من القضايا الصعبة في ظل غياب وثائق عبرانية ذات صلة، راجع: لمغيبشي، عمر: المهمشون اليهود في المصادر العبرانية، نموذج يهود تطوان في القرنين 19و 20 الميلاديين من خلال سجلات الختان للربي التطواني، إسحاق السرفاتي، ضمن: أعمال مهداة لمحمد استيتو، الأزمات والهشاشة بالمغرب، مقاربات متقاطعة (2019)، تنسيق: مصطفى نشاط، بغداد بوحسون، عبد الحميد الصنهاجي، رشيد بشوتي، محمد الغرايب. الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الرباط: مطابع الرباط نت، ص109–119.

[2] – شرماط، عبد السلام (2000)، يهود المغرب في كتابات حاييم الزعفراني، الرباط: جامعة محمد الخامس، أطروحة دكتوراه غير منشورة، ص5.

[3] – شهبر، عبد العزيز: علاقة يهود تطوان ببيعات الشرق العربي وأوربا خلال القرن 19 وبداية القرن 20م، ندوة، تطوان قبل الحماية 1860–1912 (1992). تطوان: مطبعة الهداية، ص159.

[4] – عبد الجليل، محمد بن (1996): صور من حياة اليهود على عهد المولى الحسن الأول وابنه عبد العزيز، مجلة كلية الآداب سايس فاس، ع 2، ص49.

[5] – بنهاشم محمد (2012): الولايات المتحدة الأمريكية والمسألة اليهودية بالمغرب، مجلة مصباحية، سلسلة العلوم الإنسانية، ع 9، ص134.

بإقطاعهم أراضي مخزنية دون مقابل، عندما تم توسيع مسجد تطوان. كما سمح لهم السلطان ببناء ملاح جديد بأطراف الرباط عندما ضاق بهم الملاح القديم بنفس المدينة[1].

وبخصوص الطائفة اليهودية بتطوان فقد أعطتنا الرحلة البريطانية إحصاءات مهمة خلال القرن التاسع عشر إذ قدّر، بيوكليرك (Beauclerk) سكان المدينة في سنة 1826 بـ 40 ألف إلى 50 ألف نسمة نصفهم من الطائفة اليهودية أما سكوت (*Scott*) فقدّر عدد السكان في سنة 1840 بـ 15 ألف نسمة منها 14 ألف من الطائفة اليهودية[2].

وهذه الطائفة المتميزة عرقيا ودينيا كانت من أصل "ميغوراشيم" وهم المطرودون من الأندلس والبرتغال، وسميت أيضا "سفرديم" أي اليهود من أصل إسباني، قد احتفظت باللغة القشتالية القديمة (لادينو) وجعلوها أداة للتخاطب فيما بينهم[3]. وهو ما يؤكد أن المدينة كانت أيضا ملجأ لليهود وليس للمسلمين فقط، والذين بدورهم عانوا قسوة الاضطهاد في الأندلس من منع لممارسة الشعائر، ومصادرة الأملاك، والإحراق وغير ذلك من الآلام والشدائد، ليجدوا في حواضر المغرب أرضا تستوعب الجميع في ظل قيم التسامح والتعايش، ليسهموا مع الغالبية المسلمة[4] في بناء حضارة متعددة المشارب كانت تطوان أبرزها، حيث أصبح مجتمعها يتشكل من عدة عوائل لعبت أدوار محورية في الواقع الاقتصادي والاجتماعي، نذكر منها حسب الترتيب الألفبائي الآتي:

جدول رقم 1: يوضح أسماء بعض العوائل اليهودية بتطوان القرن 19، حسب كتاب Sarah leibovici [5]

الحروف الأبجدية	أسماء العائلات اليهودية بالمدينة

[1] – بنهاشم، محمد، المصدر السابق، ص134 – 135.

[2] – لعميري، محمد، " تطوان في الرحلة البريطانية " ندوة: تطوان قبل الحماية 1860–1912(1992). تطوان: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الهداية، ص251.

[3] – السعود، مرجع سابق، ص37.

[4] – كانت علاقتهم مع المسلمين بالمدينة محدودة. لكنها قائمة على المصالح بين اليهود وباقي السكان، وكمثال على ذلك ما ورد في النصوص العبرية ليهود تيطاوين الذين ذكروا بأن الملاح كان مفتوحا أمام جميع مكونات المجتمع التيطاويني، أنظر، شهبر عبد العزيز (2000): دراسات حول يهود تيطاوين، تطوان: منشورات جمعية تطاون أسمير، ص33. وكتاب لمغيبشي، عمر (2019): يهود تطوان، 1492–1900، دراسة في التاريخ والتحولات. جزآن، تطوان: منشورات باب الحكمة، وفيه تفاصيل كثيرة بخصوص هذا المكون.

[5]– قمنا باستغلال وثيقة أرشيف الاتحاد الإسرائيلي العالمي والتي جاءت ضمن كتاب سارة ليبوفيشي في ملحق كتابها، أنظر:
Leibovici, Sarah (1984), *chronique des juifs de Tétouan (1850 – 1896)*, paris: Maison Neuve et larose, P: 253–257.

الألف	أبيكاسيس، أبحتار، أبحسيرة، أبندوشام، أبنصور، أبرغال، أبيزديد، أبيتان أبيتبول، أبواب، أبودرهم، أبيربي، أشريت، أفلالو، الباز، ألبو، الموزني الموزنينو، أنهوري، أتياس، أوداي، أزنكو، أزراد، أزولاي.
الباء	باربيرو، برشيلون باروس، بريغل، بنعدي، بنلاركي، بنحسان، بنحمامي، بنعلال بن عروش، بن صياغ، بنباروش، بنشطون، بنشرتيت، بندحران، بندلاك، بنسوسي، بنخاليد، بنشيمول، بندودو، بنحاييم.
الكاف	كابدوش، كارتيرو، كاتان، شقري، شقرون، كوهن،كونكي،كورسيكا.
الدال	دادو، دانان، دارمون،دودو.

وعموما حظيت المدينة بتقديرهم الخاص فقد اعتبروها مدينة مقدسة أو «قدس صغيرة» تبعا لخصوصيات يهود تيطاوين الأندلسيين، وجعلوها مركزهم الديني والعلمي، فأدى ذلك إلى علو شأن يهوديها ثقافيا على باقي يهود المغرب[1].

3. العنصر الجزائري

ولما كانت تطوان في مقدمة المدن المغربية، التي انتقل اليها عدد كبير من أهل الجزائر ونواحيها، وكذلك من مدن أخرى مثل قسنطينة، ومستغانم ووهران، فقد كان مهاجروها محط اهتمام خاص من لدن المخزن، لأن عددا مهما منهم كانوا من الفقراء. لذا لم يتوان السلطان المغربي المولى عبد الرحمان بن هشام في البرور بهم، والعمل على تلبية مطالبهم، وإعانتهم على الاستقرار والاستيطان بالمدينة[2].

ويلاحظ على العموم، أن الاستيطان بها تضاعف في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر حيث كان للاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1246 هـ /1830م آثار وخيمة على الأوضاع المادية والمعنوية للجزائريين، لم يجدوا أثناءها، سوى الهجرة بدينهم وشرفهم وكرامتهم إلى «بلدهم الثاني» المغرب[3]. غير أن ما يشار إليه أولا هو أن دراسة الوجود الجزائري بالمغرب عامة وتطوان خاصة

[1] – شهبر، عبد العزيز (1995): طائفة يهود تيطاوين خلال القرنيين السادس والسابع عشر، ندوة: تطوان خلال القرنين 16 و17م. مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي بتعاون مع المجموعة الحضرية لتطوان. تطوان: كلية الأداب والعلوم الإنسانية، ص100

[2] – بوهليلة، إدريس (2012): الجزائريون في تطوان خلال القرن 13 هـ / 19 م، مساهمة في التاريخ الاجتماعي المغربي، ط1، تطوان: مطبعة تطوان، ص129.

[3] – بوهليلة، إدريس (2000)، العائلات الجزائرية بتطوان من خلال مخطوط عمدة الراوين في تاريخ تطاوين لأحمد الرهوني، مجلة كلية الآداب تطوان، ع 10، ص296.

لا بد أن يدرس ضمن الإنتاج الوثائقي المحلي سواء العائلي أم المخزني[1]، وذلك بغية التوصل إلى تقييم تاريخي موضوعي يبرز الأدوار الإيجابية للمغرب والمغاربة تجاه إخوانهم في ظل فكرة التضامن الاسلامي التي تحتمها الظروف العصيبة التي ألمت ببلاد الجزائر في القرن التاسع عشر. وهو ما يبدو في ذلك الترحيب الذي أبداه السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام (1822-1859م) حيث أمر عامل تطوان بوسلهام بن علي أزطوط بالتوصية حسنا بهم، والانتفاع من مواهبهم وتوظيفهم في الصنائع وبعض الوظائف حتى لايبقوا عرضة للضياع[2].

بل توفير المخزن لنوع من ظروف اندماج هذا العنصر في مجتمع حاضرة تطوان كانت له أهميته ستبرز في ميادين عديدة ستتميز بها العديد من العائلات الجزائرية[3]، ليس فقط في الميدان الحرفي، وإنما في الميدان السياسي أيضا مثل: عائلة السلاوي، وبريشة، والصفار، وهي أدوار كانت ذات أهمية في تاريخ المنطقة برزت بوضوح أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين[4]. وكعنوان على انصهارها مع الأعراق الأخرى بالمدينة اتخذت لها كمقر للسكن ومجالا لممارسة بعض أنشطتها المعيشية أحياءا خاصة بها للاستقرار[5].

ومهما يكن، فإن استقرار العائلات الجزائرية بتطوان شكل حدثا بارزا في تاريخ المدينة الأندلسية، ليس فقط على مستوى تشكيل النسيج المجتمعي بل أيضا استطاعت أن تترك جذور ثقافتها وإبداعها اليدوي حتى على مستوى البناء المعماري[6]

4. العنصر الأوربي

يشير أحد الباحثين في إحدى دراساته –ولو أننا نسجل ذلك بتحفظ – أنه في عام 1858م كان عدد المستوطنين الأوربيين في المغرب الأقصى حوالي 700 مستوطنا، ولكن هذا الرقم تضاعف خلال ستة أعوام، حيث بلغ 1360 مستوطنا في عام 1864 م[7]. وتطوان إحدى مناطق

---

[1] – السعود، عبد العزيز، تطوان في القرن الثامن عشر...، المرجع السابق، ص24.

[2]– الكتاني، المرجع السابق، ص119.

[3]– أنظر في هذا الصدد: بوهليلة، الجزائريون في تطوان...، ص70-80.

[4]– الكتاني، المرجع السابق، ص119.

[5]– للتعرف على هاته الأحياء حسب ما اجتهد به بوهليلة، إدريس يرجع لدراسته السالفة، الجزائريون في تطوان...، وخاصة بالمبحث الثاني من الفصل الخامس والمعنون بـ نماذج من الأحياء الجزائرية في تطوان، ص109-118.

[6]– Junta de Andalucia, Consejeria de Obras Publicas y Vivienda, Consejo Municipal de Tetuán, 2011, *La Medina de Tetuán: Guia de Arquitectura* , Coordinado por Ramón de Torres López. 3 ed. Sevilla, p. 168

[7]– عجلان الحارثي، تركي (2006): تهافت المسلمين على الحماية الأجنبية في المغرب الأقصى، مجلة كلية الآداب سايس– بفاس، ع 12، ص245.

المغرب التي وجد بها هؤلاء، لكن عددهم كان قليلا بالمقارنة مع عدد السكان[1]. غير أن وجودهم بها سيكون من خلال زاويتن:

زاوية التمثيل القنصلي بالمدينة: لما كانت تطوان قد أمست خلال القرن الثامن عشر مركزا دبلوماسيا للمغرب بحكم استقرار عدد من القناصل والتجار الأجانب بها، وقدوم مبعوثي الأجناس إليها فإن منظر الأوربي النصراني الذي يختلط بالمسلمين أضحى مألوفا لدى الأهالي[2]. نجد القنصل الفرنسي دي فارتري (*De varty*) يذكرأن: « المدينة كانت تضم منزلين فرنسيين أحدهما كاثوليكي، وآخرين إنجليزيين، بالإضافة إلى منزل يوناني وآخر أرميني، كما كان هناك حوالي 2000 يهودي»[3].

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ستعرف المدينة عودة مكثفة للقناصل الأجانب[4]، وهذا الوجود القنصلي سيسهم في تزايد أعداد مهمة من الأوربيين في مدينة تطوان، وقد شكل الإسبان نسبة مهمة من المهاجرين، إذ وصل عددهم حسب إحصاء أجري في آواخر سنة 1331 هـ /1891 م وأوائل عام 1372 هـ/ 1892 م، إلى 250 شخصا، بينما كان عدد أفراد الجالية الإنجليزية لا يتعدى 17 شخصا ينتمون إلى فئة التجار على الخصوص، أما عدد الفرنسيين فكان ضئيلا جدا في مختلف المراسي، ما عدا طنجة والدار البيضاء، وفضلا عن هذه الدول التي استقر رعاياها بتطوان، فقد وجد بها كذلك عدد من رعايا البرتغال والنمسا وغيرهم[5]. لكن الجالية الإسبانية ستعرف بعد 1892 م تراجعا ملحوظا، وهو ما يكشفه تقرير القنصل الإسباني دي كويفاس، فإن الجالية الأوربية المستقرة بتطوان كانت تضم 291 فرداً سنة 1895 م، وتتوزع كالتالي: 240 إسبانيا، 45 إنجليزيا، 6 برتغاليين، وكان يسهر على رعاية صحة الأجانب طبيبان إسبانيان[6].

[1] – السعود، مرجع السابق، ص37.

[2] – المصدر السابق، ص37–38.

[3] – أورده بنيس، عبد الحي: تطوان محطة عبور البعثات الأجنبية إلى مكناس في بداية القرن18، ضمن ندوة، تطوان خلال القرن الثامن عشر...، المرجع السابق، ص60.

[4]– يشار هنا إلى أنه سنة 1777 م، أصدر السلطان محمد الثالث ظهيرا بمقتضاه حدد طنجة مقرا للقناصل الأجانب حيث يسهل التحكم ومراقبة الوجود الأوربي بالبلاد.

[5]– السعود، مرجع سابق، ص166.

[6] – تطوان خلال القرن التاسع عشر...، المرجع، السابق، ص166.

زاوية التبادل التجاري: احتلت مدينة تطوان مكانة متميزة فيما يخص المبادلات التجارية المغربية سواء مع الداخل أم مع الخارج خلال العصر الحديث[1]، وقد ارتبطت هذه المكانة بذلك الرواج التجاري الكثيف للمدينة، مع مجموعة من الموانئ الأوربية خاصة ميناء جبل طارق، إذ منذ 1740م كانت تطوان المرفأ المغربي الوحيد الذي كان على اتصال مباشر بأوربا بواسطة بريد كان يصل المدينة بجبل طارق كل أسبوع، وفي جبل طارق كانت الأخبار حول الأسواق المتوسطية، بل وحتى الأوربية الأكثر شيوعا والأكثر حداثة[2]، وما بين 1800 و1816 م بدت تطوان وكأنها الاستثناء في الفتور العام الذي عرفته التجارة المغربية[3]. وإذا كانت هذه المعطيات تبرز بجلاء الوضعية المتميزة للمدينة من الناحية التجارية، فكيف أسهم ذلك في ارتفاع عدد الأوربيين بالمدينة؟

كان للدور الدبلوماسي ولأهمية ميناء تطوان إسهام كبير في « جعل عدد هام من الأوربيين يستقرون فيها»[4]، وكان العدد الأكبر من التجار المقيمين في تطوان عند مطلع القرن الثامن عشر من الفرنسين بلغ عددهم العشرة[5]. كما حمل ممارسة الضغط التجاري على المغرب خلال القرن التاسع عشر الدول الأوربية على تسخير أوفاق المعاهدات التجارية لتحقيق مزيد من الأرباح وهو ما جعل أفواجا من الأوربيين تهاجر إليها خلال فترات القرن التاسع عشر. فضلا على أن كبار التجار بالمدينة الذين كانت لهم علاقات اقتصادية مع دول أوربا كالرزيني، وعبد الله أفروخ، ومحمد بجة، وعبد الكريم وأراغون وغيرهم شجعوا الكثير من الأوربيين على الاستقرار بالمدينة لتبادل المصالح، في حين يشير أحد الدارسين إلى أنه خلال مطلع القرن العشرين، شهدت المدينة هجرة إسبانية كثيفة كانت في البداية تتشكل من وفود المزارعين الذين استقروا بسهل مرتين ومناطق الفنيدق، ثم فيما بعد بدأ التجار وغيرهم بالقدوم لتطوان[6].

5. العنصر الزنجي: (العبيـد)[7]

[1]– العساوي، عبد الرزاق (2015)، أعيان تطوان خلال القرنيين 18–19م، محددات الوجاهة ومظاهر الحركية الاجتماعية، الرباط: جامعة محمد الخامس، دكتوراه في التاريخ غير منشورة، ص204.

[2] – لوي جون، ابن عبود محمد، الرزيني نادية، تطوان الحاضرة الأندلسية المغربية، المرجع السابق، ص41.

[3] – المرجع السابق، ص53.

[4]– بوكبوط، مرجع سابق، ص52.

[5]– السعود، مرجع سابق، ص201.

[6] – José, Luis Gómez Barceló،.*Españoles en Tetuán el Protectorado*. Société tetouanaise Et Développement urbain et architectural Du 16éme au 20éme Siècles. op. cit, p. 45 – 46.

[7] – للتعرف على أهم المصادر التاريخية لتزود المغرب بهذه البضاعة يرجع إلى دراسة: عماري، الحسين (2019)، المغرب والتجارة العابرة للصحراء من القرن xviii –xv. ط1، بني ملال المغرب: نشر وطبع مطبعة وورك بيرو.

من الواضح أن المغرب لم يكن مجتمعا عبوديا بالمعنى الذي تصبح فيه العبودية مؤسسة أساسية من مؤسساته[1].

إن أشكال العبودية التي كان لها مكانها في المجتمع المغربي التقليدي كانت خدماتية داخل المنازل العائلية، في تمييز واضح بين عبيد المنازل وعبيد الخدمة العسكرية. وهذا التنظيم الخاص ظهر إبان القرن الثامن عشر[2]. بمعنى أن الرق ظاهرة تاريخية متأصلة في المجال المغربي، وهو ما يؤكده ميشو بلير في إحدى إجاباته على سؤال المراسلين الإسبان سنة 1907 بالرسالة التالية حيث جاء فيها: « إن سألتموني حقا عن خبر الرق في المغرب، فالأمر بسيط جدا، فرغم بعض القرارات السياسية المحتشمة التي صدرت عن الدبلوماسية الأوربية، فإنه لايزال يمارس بحرية وبشكل علني »[3]. وقد عرف المغرب ظاهرة الرقيق الأسود القادم من إفريقيا والأبيض القادم من أوربا نتيجة الجهاد البحري[4]، وبمنطقة الشمال المغربي اقتصر فيها الاسترقاق على المدن، كتطوان وطنجة ووزان، ولم يدخل البادية إلا نادرا جدا، إلا أن الاسترقاق في تطوان كان أقل بكثير من فاس ومكناس ومراكش[5]. لذلك ففي تقديمه لكتاب محمد داود تاريخ تطوان أشار عبد العزيز خلوق التمسماني إلى أن الوثائق العدلية التي وظفها داود في موسوعته تتضمن معطيات تاريخية عن وجود العبيد والإماء بتطوان ومن أمثلة ذلك[6]:

- صداق محمد بن الطيب عام 1234هـ جاء فيه: «قدره مسمسم جديد وخامية جديدة مع أمتين من وسط الرقيق».

---

[1] أنظر فيما يخص ذلك الدراسة التي قام بها:

Ennaji, *M, Soldat, domestiques et concubines, L'esclavage au Maroc au XIX siècle* (1994) ,casa: editions Eddif,

[2] – بن الحبيب، الحسين (2000/1999) صورة المغرب في كتابات الأخوين جون وجيروم طارو، بحث لنيل د. د. ع، في اللغة العربية وآدابها، الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكدال، ص175.

[3]– الرق في المغرب لميشو بلير، ترجمة عبد العزيز عينور، ضمن ندوة، الرق في تاريخ المغرب (2010)، مختبر تاريخ التراث بجهة الغرب الشراردة بني احسن، 15 دجنبر 2009 القنيطرة: كلية الأداب والعلوم الإنسانية، مطبعة Rabat Net Maroc، ص147.

[4] – ابن الحاج السلمي، جعفر: العبيد والثقافة الزنجية في تطوان، في القرن 14 هـ، ندوة، المجتمع التطواني والتطور العمراني والمعماري، من القرن 16 إلى القرن 20 م (2009)، ط1، تطوان: منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الخليج العربي، ص10.

[5] – ابن الحاج السلمي، جعفر، المرجع، السابق، ص11.

[6] – أنظر: خلوق التمسماني، عبد العزيز (2001) من طنجة الساحرة إلى طنجة العفنة، طنجة: طبع ألطو بريس، ص، 64. بل تؤكد حسناء داود بأن أباها كان ينوي أن يناقش عدة قضايا تخص الرقيق بتطوان، راجع داود، محمد (2016)، التكملة ذيل لكتاب تاريخ تطوان في خطط المدينة وسكانها وحياتها الاجتماعية. مراجعة وتحقيق وإضافات، حسناء داود، منشورات جمعية تطاون أسمير، ط1، تطوان: مطبعة الخليج العربي، ص387.

- رسم عدلي مؤرخ سنة 1250هـ جاء فيه: «للوصيف المسمى الآن مبارك زنجي اللون ربع القامة».
- رسم شراء جاء فيه: «أمة كبدية اللون عربية اللسان تسمى مسعودة».

وكذلك في رسوم الوصايا التي تضمنت معطيات تتعلق بصفات العبيد، كما يبدو أن حضور العبيد الأسود بالذات في المجتمع التطواني كاد أن يكون مقصورا على الإناث دون الذكور، حسب ما صوره الرهوني في تاريخه، بل لا نكاد نلمس هذا الحضور إلا في حالتين اثنتين: حالة المجاذيب وحالة الطائفة الكناوية[1]. الأجانب أيضا الدين اهتموا أو جاءوا لتطوان يثيرون في كتاباتهم ومشاهداتهم وجود العناصر الزنجية بالوسط التطواني بشكل كثيف[2].

يتبين لنا أن تطوان عرفت في نسيجها الاجتماعي عنصر العبيد الأسود[3] الذي كان جزءا من مجالها، وهو ما يثير تساؤلات قلقة تحتاج للتشريح وعمق التحليل من طرف الباحثين، منها مثلا، ما هي وظائف العبيد الأسود في الأسر التطوانية؟ أين تبرز الجوانب المظلمة والمشرقة في حياة العبيد الأسود بتطوان؟ هل وجد سوق للعبيد الأسود داخل الفضاء الحضري للمدينة مثل مراكش خلال القرن التاسع عشر؟

يبدو أن الجواب عن هذه التساؤلات تصطدم بندرة الوثائق حول العبيد التطوانيين فهناك شبه غياب لصوت داخلي يعبر عن العبيد أنفسهم أو من عاشوا وضعية العبودية. فالكتابات المصدرية المحلية حول العبيد لاتسعف في استقصاء عوالمهم الفردية والجماعية، وهو ما يقتضي المزيد من البحث والتنقيب والاختيار المنهجي الملائم[4].

عموما، يبدو أن تاريخ العناصر البشرية في تطوان يطرح إشكالا متصلا بعمران المدينة عبر تاريخها، ويرجع ذلك إلى التداخل الكبير بين الأصول والعرقيات والهجرات إلى حد يصعب الجزم بانتسابها أحيانا في فترات تاريخية إلى عنصر بشري معين، اعتبارا لكون المدينة مجال عمراني بشري مختلط ومكان التقاء لتبادل المنافع بين المجالات والعناصر المختلفة، كما يبدو أن أصول

---

[1]– ابن الحاج السلمي، جعفر، المرجع السابق، ص16

[2] – موليراس، أوجست، (2013)، المغرب المجهول، اكتشاف جبالة، ترجمة وتقديم عز الدين الخطابي، منشورات تفرازن اعريف، ط 1، المغرب: مطبعة النجاح الجديدة. ص170–171، ص174.

[3] – لابد من التنبيه أن تصورنا للعبيد، يجب ألا يقتصر على الرقيق الأسود، القادم من إفريقيا بالضرورة، بل لقد عرف المغرب ظاهرة الرقيق الأبيض، القادم من أوربا، نتيجة الجهاد البحري، والرقيق القادم من المشرق، من القوقاز. بل عرف كذلك ظاهرة الرقيق العربي والبربري.، عن: ابن الحاج السلمي، جعفر: العبيد والثقافة الزنجية...، المقال السابق، ص10.

[4]– هناك نوع من المقالات التي ناقش فيها الباحثون المغاربة قضية العبيد من زوايا مختلفة نذكر: حركات ابراهيم (1985): تجارة الرق بافريقيا من خلال الموقفين العربي والأوربي، مجلة، دار الحديث الحسنية، ع 5، ص325 –353؛ الخميلشي، عبد العزيز (1985) حول تجارة الرقيق في المغرب خلال القرن 19م، مجلة، دار النيابة، ع 7، 1985. ص37 –44.

الساكنة وهجراتها واستقرارها بالمدينة ارتبط بالدورات التاريخية وما لازمها من أحداث أو حدوث الكوارث، وانتشار الأوبئة التي تشتد وطأتها في حال الضعف السياسي والاقتصادي فيسود عنصر بشري ويذهب عنصر آخر. من جهة أخرى نؤكد أن جميع هذه الإثنيات شكلت روافد لجميع الفئات الاجتماعية سواء خاصة أو أعيان أو عوام. بمعنى آخر لم يكن هناك أي تمييز على أساس العرق ميز المجتمع التطواني خلال القرن التاسع عشر.

المبحث الثاني: المواسم الشعبية بتطوان: تنوع وتجليات ثقافية مميزة

1. دلالات مفاهيمية لمصطلح الموسم

"يشكل الموسم مفهوما متأصلا في الثقافة العربية كما جاء في «لسان العرب»: وسم الناس توسيما، شهدوا الموسم، كما يقال في العيد عيدوا ووسموا، شهدوا الموسم...والموسم معلم يجتمع إليه، الموسم حفل ومجمع كثير من الناس، وموسم الشيء وقت ظهوره فيه، ويدل الموسم حسب هذا المصدر على مكان لالتقاء الناس عند معلم معين والتجمهر به، وأيضا على التفاعل والتواصل والتردد على المكان من أجل إقامة الأعياد والاحتفال في مكان وزمان معينين".[1]

من دلالة التسمية–الموسم–يرتبط بدورة زمنية، تحيل على حدث معين في المجتمع الواحد أو عدة مجتمعات، وهناك مجموعة من الباحثين اللذين ربطوها بما هو فلاحي، وهناك مجموعة أخرى ربطتها بما هو روحي. "الطرح الأول يرى أن الموسم احتفال قروي وحضري، يحيل على موسم الحصاد والحرث، بمعنى أنه يكون في نهاية الدورة الفلاحية، أو في بدايتها إما شكرا واحتفاء بالصابة، أو تيمنا بموسم فلاحي قادم وفير. ولهذا فإن أصل تعبير الموسم يعود إلى دورة زمنية للطقوس الفلاحية"[2]. وفي طرح ثاني، اعتبر أن الموسم ظاهرة، تقام عادة في فصل الصيف تعقد حول ضريح أو ولي صالح، في سياق معين للتعبير بأساليب وسلوكيات فردية وجماعية على بنية ثقافية مشبعة في عمومها بحمولة دينية ونفسية واقتصادية واجتماعية وسياسية...فالموسم في الأصل تجمع لقبيلة أو عدة قبائل حول ضريح أو ولي صالح قد يستمر لأيام يقيم فيه الزوار تحت الخيام يشاركون في العادات والطقوس وكذا الترفيه والتنشيط[3]. وهناك طرح ثالث بين الأول والثاني تبنته الباحثة الأنثروبولجية "Fenneke Reysoo" حيث اعتبرت الموسم ظاهرة احتفالية، أكثر مما هو ظاهرة دينية، بحيث تحدد قواعد الظاهرة الاحتفالية في ثلاث قواعد:

---

[1]– عرابي، مراد (2019)، مشروع التنمية الترابية بواسطة التراث الثقافي اللامادي بالمغرب، موسم مولاي عبد الله أمغار بإقليم الجديدة نموذج. جامعة ابن طفيل، مختبر البيئة والتنمية وتدبير المجال، ص78.

[2]– أشرواو، حسن (2015)، الموسم والتنمية المحلية، موسم تاعلات نموذجا، التراث اللامادي بالجنوب المغربي، أعمال الندوة الوطنية المنعقدة بمدينة تزنيت، ص299.

[3]–عرابي(2019)، مرجع سابق، ص79.

- اشتهار شيء معين (حدث، شخص، جماعة...).
- إطار اجتماعي غير محدد ومجال وزمن مكرس لدى المجتمع.
- "كل الممارسات الجماعية لها ميزة طقوسية"[1].

من خلال كلا الطرحين يتضح أن ظاهرة المواسم الشعبية قبل أن تكون تراثا مغربيا أصيلا، هي تراث عالمي متواجدة في مختلف الجماعات والمجموعات، وهو احتفاء يرتبط بزمن معين غالبا ما يكون سنويا ومشروطا بحدث ما في المجال الحضري أو القروي أو هما معا كما سنرى لاحقا، احتفاء يدخل في ثقافة المجتمعات سواء في إطار روحي أو عقائدي أو متمحورا حول مؤسسة ما كالزاوية والضريح، أو في إطار اجتماعي تاريخي يخلد ذكرى لها مغزى ثقافي واجتماعي، كما هو الحال في موسم الخطوبة بإملشيل، أو فلاحي كما سبق الذكر في فترة الحرث أو الحصاد.

في مدينة تطوان على غرار باقي المناطق المغربية الأخرى تحتوي على مجموعة من المواسم الدينية والفلاحية والثقافية، التي تعارف عليها السكان المحليين وأصبحت ضمن التراث الثقافي اللامادي لتطوان. وكانت لهذه المواسم ولازالت عدة وظائف وغايات اجتماعية واقتصادية ودينية تؤديها.

2. وظائف المواسم الشعبية عند مجتمع تطوان

إذا كانت المواسم لقاء السكان في الإقليم الواحد في زمن موحد بصفة سنوية، هذا التجمهر السكاني له إطار ثقافي وسوسيولوجي يهدف لمجموعة من الغايات والوظائف المتعددة التي قد لاتبدو واضحة. وهذه الوظائف إما اقتصادية أو روحانية أو اجتماعية تطورت بتطور مفهوم الموسم عما كان عليه سابقا، وكذلك بتطور مفهوم الهوية القومية داخل الإقليم الواحد، والتي جعلت الشعوب أكثر تشبثا بكل موروثاتها وأكثر حرصا على ممارستها والمشاركة فيها بحسب الموقع، وبكل شعائرها السوسيو ثقافية، باعتبارها رمز لوجود المجموعات البشرية ودلالة واضحة على قوتها، وكذلك بتطور التراث الثقافي بصفة عامة من جيل لآخر، هذا الأمر الذي يعتبر سنة بشرية تفرضها إكراهات تطور الكائن البشري باحتكاكه مع بيئته المحيطة به.

كل هذه الأسباب وأخرى أفرزت وظائف جديدة للموسم كتراث ثقافي لامادي، فمن خلال (الجدول 1) قمنا بتصنيف وظائف المواسم التي يحتفي بها أهل تطوان خلال مختلف شهور السنة لثلاثة أصناف رئيسية.

[1]– F. Reysoo (1988) Des moussems du maroc ،une approche anthropologique des fêtes patronales, p7.

جدول رقم 2: يوضح وظائف المواسم

الوظائف الاقتصادية	الوظائف الروحية	الوظائف الاجتماعية
تعتبر المواسم فرصة للتجار والفلاحين والحرفيين لفتح علاقات تجارية جديدة واكتساب تقنيات مهنية واستثمار التكتل الجماهيري بسبب الموسم من أجل مبادلات وعمليات تجارية متعددة وأنشطة اقتصادية مرتبطة بالفلاحة والصناعة. فبالتالي لعب الموسم دور السوق ومرتعا خصبا للبائع وأيضا للمستهلك.	تجديد الجانب الروحي للفرد من خلال نشر العقائد وإشعاع العلم ولقاء الفقهاء والعلماء وترتيل القرآن والمداومة على الأوراد والأذكار والأدعية لتطهير النفس وتغذية الروح وتربية الإرادة لدى الموردين. فالموسم يعتبر ملجأ ومكان لكل العادات الدينية المتواجدة في الإقليم الواحد.	باعتبار أن الموسم هو ملتقى المجموعات البشرية، كان من الضروري أن تكون له وظائف اجتماعية عدة توطد علاقات الأفراد والجماعات فيما بينها. ففيه تعقد مراسيم الزواج والختان ومن خلاله يتم تحيين الزمن الفلاحي والإجتماعي وتجديد العلاقة مع الطبيعة ومع المجتمع، "ففي الموسم تبرم العقود والمصالحات، ما يمنح للمجتمع إمكانية إعادة إنتاج ذاتيته من جديد"[1].

المصدر: عمل الباحث

3. 3. نماذج لمواسم شعبية يحتفي بها مكونات المجتمع التطواني

3.1. موسم عنصرة

العنصرة موروث حضاري وإنساني، يصعب تأطيره تاريخيا، يحتفل به في العديد من القبائل والمدن المتوسطية، وعلى غرار ذلك، تحتفل القبائل المغربية القريبة من الشريط المتوسطي بهذه المناسبة، لكن بأسماء مختلفة، مثل (موسم ماطا)، (موسم التويزة)، (موسم العنصرة)، (موسم اللامة) وغيرها من الأسماء. وهو يصادف اليوم السابع من شهر يوليوز من كل سنة. وفي بعض المناطق يحتفى بموسم عنصرة في مواعيد أخرى مثلا 24 يونيو أو الفاتح من شهر غشت، وهو التاريخ الذي يحتفي فيه سكان الجبال المجاورة لمدينة تطوان بموسم عنصرة، لكون سكان المدينة لا يقع عندهم احتفال بالعنصرة، ولكن بنزول سكان البوادي للبحر نساء ورجالا، تأثر بذلك سكان الحاضرة التطوانية وأصبحوا كذلك يمارسون نفس الطقوس، حيث أنه اسم لموسم حصاد الغلل والمنتوجات الفلاحية المختلفة خلال الموسم الفلاحي.

[1]– أشرواو (2015)، مرجع سابق، ص300.

مدينة تطوان من المدن الساحلية التي تنتمي لإقليم البحر الأبيض المتوسط، التي عرفت باحتفائها بموسم عنصرة يوم 24 يونيو، رغم أن المدينة لم تعرف بنشاطها الفلاحي الواسع إذا استثنينا الفلاحة المعيشية والموسمية المنحصرة في ضواحي المدينة والمناطق المحيطة بها وخصوصا قبيلة بني حزمار. فموسم عنصرة كان له طابع خاص في تطوان، وطقوس مختلفة منبعها ثقافة الساكنة المحلية المتأثرة بمجالها الطبيعي ومؤهلاته، حيث كان سكان تطوان يتوجهون نحو شاطئي مرتيل والمضيق وحتى نحو الأنهار القريبة من المدينة لمن يتعذر عليهم الوصول للشاطئ، كواد المحنش المسمى اليوم واد مرتيل، وذلك عن طريق ركوب الدواب أو مشيا على الأقدام، فتنطلق تلك الطقوس الإحتفالية، ومن بين أهم الأنشطة المقامة طيلة فترة الإحتفاء بالموسم التي تعتبر أساس الحدث، ما يلي:

- المبيت في الخيام المنصوبة في الشاطئ أو الأنهار.
- حفلات مستمرة مع فرق فنية "الحمادشة" أو "الحماتشة" ومجموعة "عيساوة"، أو بعض الأشخاص اللذين يتقنون العزف على بعض الآلات الموسيقية.
- مجموعات نسائية تغني ما يسمى "أعيوع" وهي مواويل جبلية، منها ما هو خاص بموسم عنصرة.
- ممارسة بعض الرياضات الرجالية كالمصارعة مثلا.
- ركوب المراكب البحرية أو ما يسمى "الفلايك" والقيام بجولة بحرية بطعم الموسيقى الجبلية، للتبرك بالبحر والماء. حيث يشتغل أصحاب هذه المراكب بشكل ملفت، ويطلق البارود منها في اتجاه السماء فرحا بموسم فلاحي مثمر.
- إعداد وجبات خاصة بموسم عنصرة مثل "المقطفة" و"العصيدة" مصحوبة بفواكه الموسم كالباكور والهندية أو التين الشوكي.

تربط في موسم عنصرة علاقات جديدة. وتتجدد فيه الاتصالات ويتبادل فيه الجميع ممن تعرفوا على بعضهم البعض الأسماء الشخصية وأسماء الأحياء أو المداشر التي يسكنونها. كما تحيي الأعراس والخطوبات، أو البحث عن شريكة الحياة خاصة الشباب من المقبلين على مشروع الخطوبة أو الذين هم في طريقهم إلى الزواج. كما تردد أهازيج من طرف عائلات ذات أصول موريسكية تتحصر على ماضيها وعلى اضطهادهم بعد سقوط الأندلس. هذا الموسم للأسف شبه اندثر في مدينة تطوان، فقط لازالت بعض الأسر ذو الأصول القروية والتي مازال لها ارتباط وثيق بالعادات الفلاحية المحلية تحييه في الجانب المتعلق بالوجبات المحضرة فيه، رغم أن هناك

أصوات تتعالى بوجوب حمايته وصونه من جديد، واستثمار الموسم الصيفي والرواج السياحي المحقق فيه.

صورة 1: أحد مظاهر الاحتفاء بموسم عنصرة

المصدر: داود حسناء (2019) "سمات وملامح من الحياة الاجتماعية"

صورة 2: أحد مظاهر الاحتفاء بموسم عنصرة بعد الاستقلال

المصدر: داود حسناء (2019) "سمات وملامح من الحياة الاجتماعية"

3.2. موسم حكوزة

يحتفي التطوانيون بموسم الحاكوز أو حكوزة أو الحاجوز في الفاتح من شهر يناير الفلاحي، احتفاء بالموسم أو السنة الفلاحية، أو السنة الأمازيغية الجديدة، وسميت حاجوزا لأنها تحجز بين السنة الماضية والسنة المقبلة. والاحتفال بهذه الليلة ليس له أصل في الشريعة الإسلامية. وإنما احتفل بها الرومان وبما أن المغرب كان مستعمرة رومانية تأسست هذه العادة في حواضر المغرب وبواديه[1]. وهو من المواسم القلائل التي مازال يحتفل بها في مدينة تطوان، رغم أن بعض مراسيم الإحتفاء لم تعد موجودة واندثرت بصفة نهائية ومن أبرز العادات المصاحبة للموسم والتي مازالت حية ليومنا هذا، هي تلك المتعلقة بالأطفال والأمهات، حيث أن الأطفال يظنون أن حكوزة عجوز تزورهم في الليل، فإما أن تترك لهم هدايا جميلة وقيمة أو نقود يكون ذلك مقابل تناولهم للعشاء، وسماع كلام الوالدين، أو أن تملأ بطونهم بالتبن في حالة عصيانهم للوالدين، ويرى البعض أنه سمي بحكوزة على وزن عجوزة التي تزور الأطفال في الليل. ووراء هذه الطقوس أهداف تربوية تتجسد في سماع كلام الوالدين وطاعتهما.

ومن أكثر ما يميز موسم الحكوزة، وجبة العشاء من خلال استهلاك سكان تطوان للفواكه الجافة أو ما يسمى «القشقشة" من تمر ولوز وجوز وتين مجفف وغيرها... حيث يتم تناولها في الليل مع أكواب الشاي. حيث يعرف حي الملاح المعروف بمتاجر الفواكه الجافة رواجا منقطع النظير. وكوجبة للعشاء يتم إعداد وجبة "شيوخة" أي الحمص أو الفول المنقوع في الماء حتى ينتفخ ثم ينقى جيدا ويطبخ في الماء مع الملح والكامون[2]، كما تقدم العصيدة أو الروز مع الحليب. ويبقى تبخير الكسكس عادة ضرورية في موسم الحاجوز لما لها من دلالة كبيرة على سنة مليئة بالخير والرزق الوفير، خوفا من أن يقفل عليم الخير كله. فالمجتمع التطواني كان حريصا على مجموعات من العادات التي تدخل في إطار المعتقدات والتصورات التي يؤمن بها في ترسيخ مجموعة من القيم كجلب الرزق مثلا، فيما تركها يعتبر تطيرا ومشئمة فيما هو مستقبلي سواء أكانت عادات مرتبطة بما هو اجتماعي أو ديني.

من أهم العادات الاجتماعية في الموسم والتي قد تكون قاب قوسين أو أدنى من الاندثار، هو ذلك التجمع الأسري والعائلي ليلة الحكوز والذي يعد له من قبل نظرا لأهميته البالغة حيث أن

[1]– أبو العباس، أحمد الرهوني (2012). عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، الجزء الثاني، منشورات جمعية تطاوين أسمير، تطوان: مطبعة الخليج العربي، ص، 239.

[2]– داود، حسناء (2019)، سمات وملامح من الحياة الاجتماعية، منشورات مؤسسة محمد داوود للتاريخ والثقافة، ط1، تطوان: مطبعة الخليج العربي، ص255.

الرجل لا يمكن أن يتأخر خارج البيت في هذه الليلة. كما كان أهل تطوان يوفرون مادة "الجمار"[1] للأطفال، دلالة ورمزية لحب أبنائهم في أن يكونوا سعداء عدد طبقات نبتة "الجمار". كما اندثرت عادة العشاء بمادة الأرز الممزوج بالحليب تفاؤلا ببياض هذه الوجبة التراثية بالمدينة حيث لم لهذه العادة وجود بين أهل تطوان.

صورة 3: عرض أطفال للباس التقليدي في موسم حكوزة بالمدينة العتيقة

المصدر: بعدسة الباحث بتاريخ 2018/16/01

3.3. موسم هيلولة

عاش المسلمين مع اليهود بمدينة تطوان في جو من التسامح والتعايش، ولم يثبت أن كانت بينهم أية عداوات أو صراعات عقائدية أو إثنية، فتعايش الأديان أكثر ما تميزت به المدينة وتاريخها العريق أكبر دليل على ذلك، حيث كان اليهود من سكان تطوان الذين لهم مقاما اجتماعيا مهما على المستوى التجاري والصناعي والاجتماعي، فكانوا يمتهنون تجارة الحلي والذهب وصناعتها وتجارة الأحذية، فيما كانت فئة أخرى تمتهن صناعة الملابس التقليدية وكان يقدر عددهم بحوالي 35 ألف يهودي يعيشون في حي الملاح البالي وأحياء أخرى مجاورة لجامع الكبير بالمدينة العتيقة، كلهم من المهاجرين الذين طردوا من الأندلس خلال القرنين 15 و16 الميلادي، كانوا يمارسون في المدينة طقوسهم الدينية من تهاليل وتعبد بكل حرية وسلام حتى أنهم وصفوا تطوان فيما بعد بالقدس الصغيرة، هذا قبل أن يهاجر أغلبهم إلى فلسطين أو إلى دول أوربية أو

[1]– شجرة النخيل في مراحلها الأولى من النمو.

أمريكا اللاتينية، أما في عهد الحماية الإسبانية تمركز اليهود فضلا عن حي الملاح بحي "لالونيطا" وفي شوارع الإنسانشي (المركز العصري حاليا).

تعود اليهود على إحياء موسم "هيلولة" في مدينة تطوان إلى جانب مجموعة من المدن المغربية، كالرباط ووزان وصفرو ووجدة وتارودانت، ويحييه اليهود الذين كانوا مستقرين بتطوان، أو أبائهم أو أجدادهم في بداية شهر مارس من كل سنة، ويستمر خلال ثلاثة أيام تستقطب فيها مدينة تطوان أكثر من 200 حاج يهودي، يمارسون طقوسهم التعبدية وسط أجواء أمنية مشددة، وذلك لما نتج عن مشكل الشرق الأوسط، وما أفرزه من تعصب اتجاه فئة اليهود، وبرنامج موسم هيلولة يتم عبر ثلاث أنشطة أساسية وهي:

- النشاط الأول: حيث تتم زيارة المقابر اليهودية بالمدينة، والتي توجد في شمال شرق مدينة تطوان، ترحما على أرواح عائلات اليهود الذين كانوا مقيمين بالمدينة.
- النشاط الثاني: تنظيم حفل في النادي الثقافي اليهودي، ويوجد بالقرب من المركز الثقافي الفرنسي بالبناء الإسباني.
- النشاط_الثالث: ينظم قداسا دينيا يهوديا آخرا، في بيعة ابن الوليد بحي الملاح. وهذا القداس اليهودي الذي يتم في بيعة بالوليد أو كيفما يسميها التطوانيون "سيناكوكا"، وذلك احتفاء بموسم الولي الصالح اليهودي الرابي **إسحاق بن الوليد الملقب "العادل"**. فحسب المعتقدات اليهودية، يعتبر الرابي إسحاق ابن الوليد، أحد أكثر الحاخامات تبجيلا من طرف اليهود السفرديم. حيث اتسمت الهوية اليهودية التطوانية، بتدينها البالغ وتشددها في الالتزام بالدين اليهودي ومعتقدات التوراة والتلمود.

يتواجد بالمدينة العتيقة حوالي 16 بيعة أو معبد يهودي يمكن عرضها كالآتي: إسحاق بن الوليد، يعقوب بن مالك، يهود ابن صور، موسى بن شتريت، إسحاق ناحوت، فيدال بيباس، إبراهيم أبودرهم، إيهود ناحوت، إبراهيم الناعوري، إبراهيم بيباس، موسى إسرائيل سليمان أبودرهم، فيدال إسرائيل، يوسف أبودرهم، الليفي وسليمان ناحون.

هذا الموسم مازال مستمر، بل ويزيد صيته سنة بعد أخرى في المدينة، لما يخلقه من أجواء مختلفة عن سائر الأيام، والمتمثلة في الطقوس التعبدية اليهودية في مدينة جيلها الحالي لم يعش وسط ذلك التعايش بين الأديان السماوية.

صورة 4: حفلة النادي اليهودي بموسم هيلولة

المصدر: بعدسة الباحث

3.4. موسم النزاهة

إذا دخل فصل الربيع وذلك في 15 فبراير خرج الناس إلى خارج المدينة للقائه وشم رائحة أزهاره ثم أقاموا مواسم النزهة في كل غرسة وجنان على روائح الأزهار ونغمات الأوتار وحفيف الأشجار وأصوات الأطيار، وخصوصا العندليب والهزار. هكذا كان الحال منذ أسست هذه المدينة[1]. إذ كان الهدف من امتلاك البساتين والجنان هو توفير مكان لما يسمى بالنزاهة التي كانت عادة تطوانية، جلبها الأندلسيون معهم من الأندلس، وهذه العادة رهينة بدخول فصل الربيع واستقرار الجو، حيث كان الرجال يقضون أياما في هذه الغراسي، كما كانت النساء تخرج للنزاهة ولكن لأمسية واحدة، إذ كانت نساء تطوان مولعات بالجلوس تحت عروش الياسمين والورد الحرفي البساتين، يغنين ويرقصن ويضعن أمامهن أطباق الورود[2]، أيضا يتغنين بأهازيج متنوعة من بينها مثلا:

أنـا ولالا لالا حـبـني كـيـف نـــــحـبـك
واغرسني فقلبك حـجـرة مـن سـكـــــر
تحسبـني من الـعبيد أنـا هـو عـبـدك

[1] – أبو العباس، أحمد الرهوني (2009)، مرجع سابق، ص237.

[2] – داود، حسناء (2019)، سمات وملامح من الحياة الاجتماعية، منشورات مؤسسة محمد داوود للتاريخ والثقافة، ط1، تطوان: مطبعة الخليج العربي، ص259.

تحسبني من العلوج ولا من كنـــــــاوى
ومحـــبـــتـــك فـــقـــــلب يـــــا
مـــــا عـــنـــــدا بـــــاش
أنـــا ولالا ولالا ما تظنني نسـلم فـيـــك
ويدا جفيتني على الدوام صابرة لجفاك
عـــذب وانكي وتيه واعمل مايرضـــيك
نصبر صبر الجمال ولا نقدر نعصـــيك
والكـــيس فناس يا لالا، ميزانو عينيـــه

أما إن كانت النزاهة عائلية أي تضم أفراد الأسرة الواحدة فقد تطول كذلك لأيام وليالي أو قد تكون يوما واحدا، ومن الأشياء الجميلة التي تؤثث الغرسة بتطوان نجد المراجيح المخصصة للأطفال. فيما موائد الحلويات التطوانية الأصيلة لا تتوقف طيلة فترة موسم النزاهة.

للأسف هذا الموسم اندثرت أغلب ملامحه، والعناصر التي كانت تؤثث مراسيمه، من غراسي وجنان، التي لم تعد موجودة بنسبة لعدة أسباب من بينها تخلي العائلات التطوانية عنها إما بالبيع أو بناء مساكن فيها أو قسمتها باعتبارها إرثا مشتركا بين الأبناء والورثة، وكل الطقوس الاحتفالية الخاصة باستقبال فصل الربيع تلاشت بتلاشي موسم النزاهة.

4. مواسم شعبية اندثرت

خلال عملية البحث البيبليوغرافي، وأيضا من خلال استطلاع رأي مجموعة كبيرة من كبار السن، وخصوصا منهم ذوي الميول في التوثيق والتأريخ، وقعنا على مجموعة من المواسم ذات الصبغة التراثية المحلية، ولكن للأسف اندثرت بصفة كلية، اختلفت أسباب اندثارها، ولكن يبقى أمر تطور الأجيال في الجانب الاجتماعي، والعولمة الثقافية التي مست كل بقاع العالم علتان أساسيتان في حدوث هذا الاندثار لهذه المواسم المحلية.

ومن بين أهمها نذكر على سبيل المثال لا الحصر موسم "فول كناوة"، "عرس العميان".

4.1. فول كناوة

هو موسم خاص بجني مادة الفول الأخضر، وهذه العملية كان يقوم بها مجموعة من المهاجرين من مناطق جنوب المغرب وكذلك من دول إفريقية لدى ملاك الأراضي اللذين يتخذون من هذه المادة زراعة ناجحة في أراضيهم، كما أن هؤلاء المهاجرين اتخذوا من بعض أراضي الملك العام مرتعا للقيام بنشاط زراعة الفول الأخضر خلال شهري أكتوبر ونونبر، وخلال جنيه في فصل الشتاء تتم عملية الجني في طقوس فلكلورية خاصة ترافقها، حيث كانت هؤلاء الزنوج يقومون

بتحميل أكوام الفول على ظهور الدواب من حمير وبغال، ثم يطوفون بها المدينة العتيقة، في مسار تتخلله وقفات ببعض بيوت أعيان مدينة تطوان، كانت أولاها في دار الشرفاء الوزانيين، وعند الدخول لكل دار من الدور المقصودة يقف الرجال بالخارج فيما تدخل النساء لداخل الدار محملات ببعض الفول والحليب عربون محبة وإخاء، فيما تقوم هذه الأسر بتقديم بعض الهدايا للنساء الزنجيات، مقابل أجواء الفرح والسرور التي أدخلنها عليها، لكن قبل هذا كله تنطلق المسيرة من باب زاوية الشيخ مولاي عبد القادر الجيلاني[1]. باعتباره شيخ هذه الفئة من المجتمع التطواني. هذا الموسم ظل قائما لحدود منتصف القرن العشرين، بعد ذلك اندثر بصفة نهائية، ولم يعد له وجود في الثقافة التطوانية. ويرجع ذلك لسببين اثنين، وهما تراجع الاهتمام بزراعة الفول الأخضر، وأيضا توجه المهاجرين من الزنوج سواء الأفارقة أو المغاربة لمهن وانشغالات أخرى.

4.2. عرس العميان

يطلق على هذا الموسم تسمية أخرى، وهي "البارود بلا دخان"، وهو عبارة عن حدث يجمع في طياته بين ما هو إنساني واجتماعي، فهو موسم يتعلق أساسا بفاقدي وضعاف البصر من أهل تطوان، فباقتراب عرس أحد أفراد هذه الفئة المجتمعية، يتجه مجموعة منهم في جولة عبر أحياء المدينة لجمع مبالغ مالية من بعض الأسر الميسورة لمساعدة الزوجين في أعباء الحياة، وفي أيام العرس يتجهون نحو دار حاكم المدينة، فيقفون في شكل مجموعة واحدة ويرفعون عصيهم نحو السماء ويقرعونها ببعضها البعض حتى تصدر أصوات كصوت البارود، هذا مع الدعاء للحاكم حتى تخرج من الدار هدايا وبعض المبالغ المالية[2]، وبنهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين توقف الاحتفال بهذه العادة التي كانت موسما بمدينة تطوان لا يمكن أن يمر العام إلا وقد مر بأحياء مدينة.

الخاتمة:

مما سبق، يتضح أن التنوع الذي يميز ساكنة المجال التطواني كانت له أهميته في خلق ثقافة متوسطية تؤمن بالتعايش وتحترم قيم التعدد. فذاك الخليط الإثني أسهم في انتاج ممارسات وسلوكات متباينة في رمزيتها ودلالتها السوسيولوجية تمظهرت في الاحتفالات، التقاليد، اللباس، العمران، والمواسم الشعبية التي تشكل عنصرا تراثيا ثقافيا لاماديا يحدد الهوية المجالية والمحلية للمدينة ككل، حيث تبين لنا مدى غنى عناصر هذه المواسم في أبعاد مختلفة ذات وظائف ودلالات حضارية ميزت هذا المجتمع الأصيل والمتنوع بشريا وثقافيا. من جهة أخرى، فهذه المواسم اليوم

[1]– داود، حسناء (2019)، المصدر السابق. ص256.

[2]– مصدر سابق. ص255–256.

تعرف تراجعا ملحوظا على مستوى الكم قد يؤدي لاندثارها كليا، وبالتالي فقدان عنصر تراثي مجالي مهم، ويرجع هذا بالأساس لغياب شبه كلي لعملية المحافظة والصون من خلال تثمين هذه المواسم وإدماجها في استراتيجيات إعادة الاعتبار للتراث الثقافي المحلي، وبالتالي طرحها كمنتوج ضمن برامج التنمية السياحية. طبعا دون أن ننسى ما لهذه المواسم من أدوار ريادية في ترسيخ مبادئ التعددية الثقافية لإثنيات تركت حضورا كبيرا في بناء التراث الإنساني المتوسطي، والإرث التطواني اللامادي خاصة، حيث تتنوع روافده التي جمعت فاعلين من أصول وهويات مختلفة والتي تعايشت على مدى فترات زمنية طويلة.

فنوصي ولغزارة التراث اللامادي للمدينة بانخراط الباحثين كل من تخصصه وموقعه أن يعطي له مساحات واسعة في النقاش العلمي والدراسات الأكاديمية واستثماره تنمويا، لاسيما ونحن نواجه تنميطا حضاريا تقوده جهات رأسمالية زمن العولمة يهدد التعددية والهوية المتجذرة في عمق التاريخ.

قائمة المصادر والمراجع:

الرسائل الجامعية:

- بن الحبيب، الحسين (2000)، **صورة المغرب في كتابات الأخوين جون وجيروم طارو**، الرباط: جامعة محمد الخامس، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها، غير منشور.
- الشايخي، أحمد (2004)، **بلاد اجبالة تحت الحماية الإسبانية من 1912 إلى 1956**. الرباط: جامعة محمد الخامس، أطروحة دكتوراه في التاريخ غير منشورة.
- شرماط، عبد السلام (2000)، **يهود المغرب في كتابات حاييم الزعفراني**، الرباط: جامعة محمد الخامس، بحث لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية غير منشور.
- الطيبي، عبد الرحمان (1993)، **المجتمع بمنطقة الريف قبل الحماية**، ج1، الرباط: جامعة محمد الخامس، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر غير منشور.
- العساوي، عبد الرزاق (2015)، **أعيان تطوان خلال القرنيين 18-19م، محددات الوجاهة ومظاهر الحركية الاجتماعية**، الرباط: جامعة محمد الخامس، أطروحة دكتوراه في التاريخ غير منشور.
- الكتاني، سيدي محمد (2004)، **المقدس في المجتمع الجبلي (1894-1912)**. الرباط: جامعة محمد الخامس، أطروحة دكتوراه في التاريخ غير منشورة.

الندوات:

- **الأزمات والهشاشة بالمغرب، مقاربات متقاطعة** (2019). أعمال مهداة لمحمد استيتو، تنسيق مصطفى نشاط، بغداد بوحسون، عبد الحميد، الصنهاجي، رشيد بشوتي، محمد الغرايب. الرباط: الجمعية المغربية للبحث التاريخي، مطابع الرباط نت.
- أشرواو، حسن (2015)، الموسم والتنمية المحلية، موسم تاعلات نموذجا، التراث اللامادي بالجنوب المغربي، أعمال الندوة الوطنية المنعقدة بمدينة تزنيت.
- **تطوان خلال القرن الثامن عشر 1727-1822**(1993اكتوبر). مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي ومدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة، تطوان: كلية الأداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الهداية.
- **تطوان خلال القرنين 16 و17م** (1995). مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي بتعاون مع المجموعة الحضرية لتطوان. تطوان: كلية الأداب والعلوم الإنسانية.
- **تطوان قبل الحماية 1860-1912**(1992). مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي بتعاون مع المجموعة الحضرية لتطوان. كلية الأداب والعلوم الإنسانية بتطوان، تطوان: مطبعة الهداية.
- **جبالة مجال وممارسات**، منشورات كلية الآداب بالقنيطرة، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
- **الرق في تاريخ المغرب (2010)**. تنسيق عبد العزيز عينور، عبد العزيز بل فايدة، محمد الغرايب، نظمها مختبر تاريخ التراث بجهة الغرب الشراردة بني احسن، 15 دجنبر 2009 القنيطرة: كلية الأداب والعلوم الإنسانية، مطبعة Rabat Net Maroc.
- **المجتمع التطواني والتطور العمراني والمعماري، من القرن 16 إلى القرن 20 م** (2009). مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، سلسلة أعمال الندوات، تنسيق أمحمد بن عبود، ط1، تطوان: منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الخليج العربي.

الدوريات:

- أبو العباس أحمد الرهوني (2012)، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، الجزء الثاني، منشورات جمعية تطاوين أسمير، تطوان: مطبعة الخليج العربي.

- البكوري، معاذ (2018)، **قبائل غمارة من مواجهة الضغوط الاستعمارية إلى فرض الحماية الإسبانية، 1859-1956**، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ط1، المغرب: طبع *Negoce Com*.
- بن عبود، محمد (2009): **التأثير الأندلسي في الثقافة المغربية**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، ع 15، ص. 110.
- بنهاشم، محمد (2012): **الولايات المتحدة الأمريكية والمسألة اليهودية بالمغرب»**، مجلة مصباحية، سلسلة العلوم الإنسانية، ع 9، ص. 134.
- بوزنيب، الحسين (1998): **صعوبة اندماج الموريسكين في المجتمع المغربي»**، مجلة الأكاديمية، ع 15.
- بوهليلة، إدريس (2000): **العائلات الجزائرية بتطوان من خلال مخطوط عمدة الراوين في تاريخ تطاوين لأحمد الرهوني»**، مجلة كلية الآداب تطوان، ع 1، ص. 296
- بوهليلة، إدريس (2012)، **الجزائريون في تطوان خلال القرن 13 هـ / 19 م، مساهمة في التاريخ الاجتماعي المغربي**، ط1، تطوان: مطبعة تطوان.
- حركات، ابراهيم (1985): **تجارة الرق بافريقيا من خلال الموقفين العربي والأوربي»**، مجلة، دار الحديث الحسنية، ع 5، ص. 325 -353.
- خلوق التمساني، عبد العزيز (2001)، **من طنجة الساحرة إلى طنجة العفنة**، ط1، طنجة: طبع ألطو بريس.
- الخميلشي، عبد العزيز (1985): **حول تجارة الرقيق في المغرب خلال القرن 19م»**، مجلة، دار النيابة، ع 7، 1985. ص. 37 -44.
- داود، حسناء (2019)، **سمات وملامح من الحياة الاجتماعية**، منشورات مؤسسة محمد داوود للتاريخ والثقافة، ط 1، تطوان: مطبعة الخليج العربي.
- داود، محمد (2016)، **التكملة ذيل لكتاب تاريخ تطوان في خطط المدينة وسكانها وحياتها الاجتماعية**. مراجعة وتحقيق وإضافات، حسناء داود، منشورات جمعية تطاون أسمير، ط1، تطوان: مطبعة الخليج العربي.
- رزوق، محمد (1996): **ملاحظات حول الوجود الموريسكي بالمغرب»**، مجلة كلية الآداب بوجدة، ع 6، ص. 145.

- السعود، عبد العزيز (1996)، **تطوان خلال القرن التاسع عشر، مساهمة في دراسة المجتمع المغربي**. منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان: مطبعة الحداد يوسف إخوان ش.م.م.
- السعود، عبد العزيز (2007)، **تطوان في القرن الثامن عشر، السلطة، المجتمع، والدين**. منشورات جمعية تطاون أسمير، ط1، تطوان: مطبعة الخليج العربي.
- شهبر، عبد العزيز(2000)، **دراسات حول يهود تيطاوين**، تطوان: منشورات جمعية تطاون أسمير.
- عبد الجليل، محمد بن(1996): **صور من حياة اليهود على عهد المولى الحسن الأول وابنه عبد العزيز**»، مجلة كلية الآداب سايس فاس، ع 2، ص. 49.
- عجلان الحارثي، تركي (2006): **تهافت المسلمين على الحماية الأجنبية في المغرب الأقصى**»، مجلة كلية الآداب سايس– بفاس، ع 12، ص. 245.
- عرابي، مراد (2019)، **مشروع التنمية الترابية بواسطة التراث الثقافي اللامادي بالمغرب، موسم مولاي عبد الله أمغار بإقليم الجديدة نموذجا. جامعة ابن طفيل، شعبة الجغرافيا، مختبر البيئة والتنمية وتدبير المجال.**
- العلوي، التقي (2019)، **أصول المغاربة**. مراجعة وإخراج علال كركوك، وحفيظة الهاني، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط: مطبعة المعارف.
- عماري، الحسين (2019)، **المغرب والتجارة العابرة للصحراء من القرن xv– xviii**. ط1، بني ملال المغرب: نشر وطبع مطبعة وورك بيرو.
- الفهري، عبد الحميد(1992): **البربر من خلال المؤلفات العربية إلى حد ابن خلدون**» مجلة الكراسات التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، بتونس، ع 159 – 160، ص. 91–122.
- قدور، عبد المجيد (2003): **الهجرة الأندلسية إلى المغرب الإسلامي ونتائجها الاجتماعية والحضارية، الجزائر كنموذج**» مجلة العلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة، الجزائر، ع، 20، ص. 172.
- لمغيبشي، عمر (2019)، **يهود تطوان، 1492–1900، دراسة في التاريخ والتحولات**. جزآن، تطوان: منشورات باب الحكمة.

- لوي جون، بن عبود محمد، الرزيني نادية (2002)، **تطوان الحاضرة الأندلسية المغربية**، ترجمة مصطفى غطيس، ط1، تطوان: منشورات تطاون أسمير.
- محمد جمال الدين، عبد الله (1978): **الموريسكيون أو المدجنون آخر المسلمين في الأندلس**، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، مصر، ع8، ص. 32.
- موليراس، أوجست، (2013)، **المغرب المجهول**، اكتشاف جبالة، ترجمة وتقديم عز الدين الخطابي، منشورات تفرازن اءريف، ط 1، المغرب: مطبعة النجاح الجديدة.
- مويلح، حسن (2022) "المقدس والمجال الفلاحي، الطقوس الاحتفالية بالمواسم بمنطقة الغرب نموذجا" ضمن، **الطقوس والممارسات الفلاحية إثنوغرافيات التراث اللامادي**. ط1، إفران: منشورات جامعة الأخوين.

المراجع الأجنبية:

- Ennaji,M (1994), ***Soldat, domestiques et concubines, L'esclavage au Maroc au XIX siecle*** , casa: editions Eddif,
- Fennek Reysoo (1988) «***Des moussems du maroc ،une approche anthropologique des fêtes patronales***» Sneldruck
- Junta de Andalucia, Consejeria de Obras Publicas y Vivienda, Consejo Municipal de Tetuán, 2011, ***« La Medina de Tetuán: Guia de Arquitectura»*** , Coordinado por Ramón de Torres López. 3 ed. Sevilla,2001 .
- Leibovici, sarah (1984), ***chronique des juifs de Tétouan (1850 – 1896)***, paris: Maison Neuve et larose.